الوطنيـــة

مترجمة عن الانجليزية

تزوجت من (هانز) — وهو أحد الجنود الألمانيين — لعام واحد قبل الحرب العالمية الضروس التي أهلكت كل حي ودمرت كل شيء ، بالرغم من أني فرنسية الأصل والجنس ... وكان أول عهدي به أن لاقيته في معرض من معارض الفنون في (باريس) — وكان قد ذهب إليه زائرا — فلما سمعته يتكلم الفرنسية بطلاقة تحدثت إليه ، فلكني حديثه العذب الفكه ، وأسرني غزله المرح الرقيق ، فكان ما كان ، وانتهى بنا الأمر إلى الزواج بعد قليل

وتركت وطني راضية لأعيش مع زوجي (هانز) في قرية صغيرة من قرى ألمانيا . وعشت بين أحضان عائلته في سعادة ورفاهية ، ورغد وبلهنية . وصار أصدقاؤه مع مضي الزمن أصدقائي ، وخلصاؤه خلصائي ، وأقاربه أقاربي ! وما مضى على وجودي بينهم غير قليل حتى تعلمت كيف أتكلم الألمانية ، وحتى كدت أنسى أنني كنت فرنسية الجنس واللغة في يوم من الأيام . ونقلني (هانز) بما حباه الله من قوة وسحر إلى دنياه فذقت لذة الهناء ، وحلاوة الصفاء ، ومتعة الحب

ولكن هذا النعيم لم يدم طويلا وا أسفاه ! فقد أعلن لي (هانز) في يوم من الأيام — وقلبه يفيض فرحا — أن ألمانيا قد أعلنت الحرب على أعدائها ، وأنه سيسافر إلى ميدان القتال لأن اسمه قد درج بين أسماء المحاربين هناك ... ثم رجاني أن أعود إلى (باريس) — في الوقت نفسه — خوفاً من أن تجد ظروف تحول بيني وبين ذلك . وقد كان (هانز) — بالرغم من كل ذلك — على يقين من أن الحرب لن تستمر أكثر من ثلاثة شهور على أكثر تقدير ، وأنه سيعود إلى بعد ذلك . .

وأحسست بعد أن أفقت من صدمة هذا النبأ الفاجع ، وهول هذا الخبر المؤلم — أن حبي لزوجي (هانز) أقوى وأعنف بكثير من حبي لوطني (فرنسا) ! وشعرت أن كل ما هو حبيب إليه أحب إلى نفسي من كل ما سواه ، وأن كل ما هو عزيز عليه أعز على قلبي من كل ما عداه . ومن أجل ذلك أهبت بنفسي أن أكون ما حييت فداء لهانز وللقيصر ولألمانيا ... متحملة في سبيل ذلك ما قد ينتابني من الألم أو يمسني من السوء ...

وودعت (هانز) وأرسلته إلى المعركة ، وقلبي يفيض إعجابا ونفسي تتيه فخارا . وقد كنت أنا أيضا أعتقد أن الحرب ستضع أوزارها عما قليل ، وأن (هانز) سيعود إلى سليما قويا آمنا . وانقضت شهور عدة فما خمد لهيب الحرب وإنما ازدادت المهالك الشتركة فيها عدداً وعددا . وكان (هانز) يرسل إلى بين الحين والحين بعض الرسائل — وهو في ميدان القتال — فكنت أجد فيها قليلا من المتاع واللذة ، وشيئاً من الراحة والطمأنينة ، وميضاً من السلوان والأمل ! ولكني ما كنت أريد إلا أن أرى وجهه ، وأسعد به في جواري مرة أخرى !

* * *

أواه يا قلبي !

إني ما رأيت (هانز) بعد ذلك اليوم أبدا ، وما كنت أحسب أنني قد ودعته الوداع الأخير ! فقد ترامى إلى أن طائرة فرنسية دمرت الكمين الذي كان يختبئ فيه — بعد مضي عشرة شهور من بدء الحرب — فقضى نحبه محترقا . وكاد الحزن يفقدني عقلي ويورثني الخبل ...

ومن ذلك اليوم تولدت في نفسي الكراهية والبغضاء لفرنسا وتمنيت لو استطعت أن أثأر لزوجي أو أنتقم له من أولئك الذين قتلوه ! وأحببت لو أن فرنسا خرجت منهزمة منكسرة من الحرب ، بل مدمرة مهدمة مخربة ! ولكن السنين — واحسرتاه — قد خيبت ظني ، إذ وقعت الهزيمة على ألمانيا ؛ فملأت الأحلام المفزعة فؤادي ، وأفعمت الأوهام القاتلة خيالي ؛ فصدقت كل ما يقال عن قسوة الألمانيين ، وكل ما يذاع من أنباء اعتدائهم على الأطفال الآمنين والنساء الضعيفات . فدعوت الله من قلب خالص أن ينصر القيصر ويكتب له الفوز المبين !!

... وفى يوم من أيام سبتمبر من عام ١٩١٨ أجلى الفرنسيون الألمان عن قريتنا ، ولكن الألمانيين تمكنوا — قبل غروب شمس ذلك اليوم — من استرداد قريتهم المسلوبة ومحاصرتها وتطويقها..

واستيقظت على حين غرة على صوت مزعج ودوى هائل وضجيج وجلبة فى حجرة الاستقبال التى فى الطابق الأسفل من منزلى ، فارتديت منامتى على عجل وأضأت المصباح الكهربائى الذى ينير الدرج ثم هبطت الدركات مسرعة يدفع بعضى بعضاً

* * *

فماذا رأيت هناك ؟

... لقد رأيت جنديا فرنسيا يرتدى ملابسه العسكرية متكئاً بجانبه على المنضدة ، والدم يتفجر غزيراً من جرح فى رأسه ، وكانت سترته ملطخة بالوحل ، وعلى وجهه أثر مما يعانى من الألم ويقاسى من الجهد ...

وما كاد الرجل يرانى — وأنا أقترب منه — حتى ألقى إلى نظرة فيها كل معانى الاسترحام كأنما يستجدى بها المعونة ، ويرجو بها الغوث . ثم مد إلى إحدى يديه كأنما يعلن إلى أن لا حول له ولا قوة

فقلت له بلهجتى الفرنسية الوطنية : « هل يؤلمك هذا الجرح كثيراً ؟ »

ففتح الجندى عينيه على مهل ثم قال : « هل سيدتى ... فرنسية ؟ »

وما أدرى لماذا أحسست ساعتئذ بثورة فى دمى وهزة فى جسمى ، وخفقان فى قلبى !

وقلت للجندى : « نعم ، إننى فرنسية ، ولكنى مقيمة هنا .. إنى ... انا ... ! »

وأمسك الجندى بذراعى ثم قال : « إن الواجب يحتم عليك أن تساعدينى . لقد حسبنى زملائى ميتا فتركونى ، والآن يجب على أن أرجع إلى صفوفنا ! يجب على ... »

وما كاد يتم كلامه حتى سمعت دقا عنيفاً على الباب ، وصوتاً عالياً ينادى : « أيتها السيدة ! ... أيتها السيدة »

كانت فى منزلى حجرة صغيرة اعتاد (هانز) أن يقضى فيها شؤونه الخاصة ؛ فلما مات أغلقت بابها الصغير ثم غطيته بستر عن الأبصار . وأبقيت الحجرة على ما كانت عليه ، فلم أتناول أى شىء فيها بتغيير أو تبديل كأنها مكان مقدس لا يمس ، أو كأنها الوئل الذى يستريح فيه زوجى ويطمئن إليه

وما أدرى ما الذى دفعنى إلى أن أنتهك هذا الحرم المقدس فى ذلك الموقف العصيب !

لقد قمت الجندى الفرنسى إلى الحجرة فرفعت الستر عن بابها ، ثم فتحته ، وبعد أن أدخلته فيها أغلقت بابها ثم أعدت الستر إلى موضعه

واشتد الدق على الباب الخارجى عنفاً ، وما كدت أفتحه حتى دخل منه جندى ألمانى ضخم الجسم كبير الجرم أحمر الوجه فدفعنى جانباً وزاحنى عن طريقه ، ثم أخذ يجول فى أنحاء البيت كيفما شاء باحثاً عن الجندى الفرنسى . ففتش المطبخ ثم الحمام فلما لم يجد غريمه اندفع يرقى الدرج إلى أعلى

وتلبثت فى موضعى حتى عاد إلى ، وحرصت على أن أكتم شعورى ، وأكبح عواطفى ، وأدفع عن نفسى رجفة كادت تهزنى . وحاولت أن أبعد عينى عن الستر حتى لا ألفت نظر الألمانى إليه

وما كاد الجندى يقف أمامى وجهاً لوجه حتى أدركت أنه مخمور لا يعى ! .

وقال لى بصوته الغليظ الخشن : « إننى ... إننى أظن أنى قد رأيت كلباً فرنسيا يجرى فى فناء دارك وما أرتاب فى أنه قد تسلق الحائط ودخل منزلك من النافذة... إنى ... إنى ... ! »

فأجبته بهدوء : « لقد بحثت بنفسك فلم تجد أحداً هنا »

وكان من العسير عليه أن يدرك ما يقول أو يفكر فيه فقال : « أنا ... أنا ... لقد أخطأت .. أنا ... أنا ... »

وانتشرت على شفتيه ابتسامة شيطانية ما رأيت أخبث منها ثم قال : « هل تعيشين هنا .. وحيدة ؟ ! »

فأجبته : « نعم . إننى أعيش هنا وحيدة منذ أن قتل زوجى »

فاقترب منى شيطاناً فاجراً ، وعربيدا داعرا ، ومخموراً خبيثاً وهو يتمتم : « وعلى ذلك فأنت تعيشين هنا وحيدة ؟ ! »

ولكن بالرغم من كل ذلك لم أتحرك من موضعى ولم أتزحزح

عنه ، بل قلت له : « ألا تظن أنه من المستحسن أن تخرج الآن لتبحث عن الكاب الفرنسي فلعلك عاثر عليه ؟! »

ولكنه أجابني — بعد أن طوق خصري بذراعه وضمني إليه بعنف — : « لا .. لا .. لقد ذهب .. و .. وأنا لا أريد أن أبرح هذا المكان .. بل أريد أن أمكث هنا بأية طريقة !! »

وأحسست بعد ذلك بشفتيه تنطبقان على عنق . ثم قال : « ستكونين — ولا ريب — متساهلة لينة الجانب معي ... أليس كذلك ؟! »

وحاولت أن أدفعه بعيداً عني ثم قلت له : « أرجوك ... »

ولكنه ضمني إليه بقوة ، ثم تتابعت أنفاسه سراعاً وهو يقول : « لا تقاومي ... فلن تجديك المقاومة شيئا . لابد مما أريد ... وتستطيعين أن تنسي كل شيء عندما أتركك إن كنت لا تريدين أن ... ... لاتقاومي ... !! »

وهممت أن أصرخ مستغيثة ولكني تذكرت أن صراخي سيجلب دون ريب عدداً كبيراً من الجند ، وأن هؤلاء سيفتشون وسيبحثون من جديد عن الجندي الفرنسي . فقلت للجندي الألماني : « أرجوك ... أرجوك أن تدع هذا لوقت آخر ... ...!! »

فقهقه الرجل ثم قال : « لوقت آخر ؟! وقت آخر ؟! ربما يكون ذلك عندما أموت !! »

وما لبث حتى حملني على ذراعيه وأخذ يصعد بي الدرج إلى أعلى . ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى سمعنا صوتاً يقول على حين غرة : « إنني آسف ياسيدتي على ما سببت لك من تعب .. ! »

وما سمع الألماني هذا الصوت حتى أنزلني من فوق يديه وأوقفني على قدمي ، ثم أدار وجهه فيما حوله وإذا ... وإذا بالجندي الفرنسي واقفا أمامه وجهاً لوجه ، منتصب القامة ، مرفوع الهامة ، بالرغم مما يقاسي من جراحه ، وما يعاني من آلامه ! وإذا به يبسم لنا بالرغم من أنه يكاد يغمى عليه من الألم ، ويغشى عليه من الجهد والإعياء.

***

إنني سجينك الذي تبحث عنه ، وأسيرك الذي ترجوه ، إنني حاجتك وطلبتك ... ومادام الأمر كذلك فهيا بنا إذن نذهب من هنا ونترك هذه السيدة الكريمة في سلام وطمأنينة !!»

هكذا قال الجندي الفرنسي للجندي الألماني الذي أذهلته المفاجأة فوقف مرتبكا لايدري ماذا يفعل . وأخيراً قال هامساً في نفس متقطع « نعم ... نعم ... إنك سجيني ! »

وخرج الرجلان من داري وسارا معا ؛ وعلى ثغر الفرنسي ابتسامة لاتفارقه ، وعلى وجه الألماني حيرة وذهول !

وما رأيت الجندي الفرنسي بعد ذلك اليوم أبداً. فياليت شعري هل مات في الحرب أم هو مايزال حيا إلى اليوم !؟ ولو أنني رجعت إلى (باريس) بعد الحرب لما تباطأت في البحث عنه حتى ألقاه فأشكره على ما أسدى إلي من عارفة وماقدم إلي من جميل

ولكني وا أسفاه لم أعد إلى فرنسا ، لأن حياتي فيها تزوير على نفسي ؛ ولم أبق في ألمانيا ، لأني فجعت فيها بموت زوجي الذي كنت أعيش من أجله على أرضها ، بل أتيت إلى إنجلترا لأبدأ حياة جديدة ، وما نسيت هذه الذكريات المؤلمة في يوم من الأيام بالرغم من مرور هذه السنين الطوال

م . سهم

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوي ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع خمس مرات في ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد